

فإذا استعان الزارع بعوامل طبيعيّة كالشمس والماء وحرث الأرض، فقد استعان بالـ - في الحقيقة - لأنّه تعالى هو الذي منح هذه العوامل: القدرة على إنماء ما أودع في بطن الأرض من بذر ومن ثمّ - نباته والوصول به إلى حدّ الكمال.

2- أن يستعين بإنسان حيّ أو ميت أو عامل طبيعي مع الاعتقاد بأنّه مستقلّ في وجوده، أو في فعله عن الله، فلا شكّ أنّ ذلك الاعتقاد شرك والاستعانة به عبادة.

فإذا استعان زارع بالعوامل المذكورة وهو يعتقد بأنّها مستقلّة في تأثيرها أو أنّها مستقلّة في وجودها ومادّتها كما في فعلها وقدرتها، فالاعتقاد شرك والطلب عبادة للمستعان به.

ولإيقاف القارئ على هذه الحقيقة نلفت نظره إلى آيات تحصر جملة من الأفعال الكونيّة في الله تارة، مع أنّها تنسب نفس الأفعال في آيات أخرى إلى غير الله أيضاً، وما هذا إلاّ لعدم التنافي بين النسبتين لاختلاف نوعيّتهما، فهي محصورة في الله سبحانه مع قيد الاستقلال، وتنسب إلى غير الله مع قيد التبعيّة والعرضيّة. الآيات التي تنسب الظواهر الكونيّة إلى الله وإلى غيره:

1- يقول سبحانه: (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) (الشعراء/ 80). بينما يقول سبحانه في العسل: (شَفَاءٌ لِلنَّاسِ) (النحل/ 69).

2- يقول سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ) (الذاريات/ 58)، بينما يقول تعالى: (وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا) (النساء/ 5).

3- يقول سبحانه: (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) (الواقعة/ 64)، بينما يقول سبحانه: (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَكْفِيزَهُمُ الْكُفَّارَ) (الفتح/ 29).

4- يقول تعالى: (وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُدِيرُ شُؤُنَ) (النساء/ 81)، بينما يقول سبحانه: (يَلَايَ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) (الزخرف/ 80).

5- يقول تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ) (يونس/ 3)، بينما يقول سبحانه: (فَالْمُدَبِّرَاتِ أُمُورًا) (النازعات/ 5).

6- يقول سبحانه: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) (الزمر/ 42). بينما يقول تعالى: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ) (النحل/ 32).

إلى غير ذلك من الآيات التي تنسب الظواهر الكونيّة تارة إلى الله تعالى، وأخرى إلى غيره.

مفردات الاستعانة بالله:

الصبر والصلاة: قال تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) (البقرة/ 45). فإنّ الاستعانة بالله ليس لها مصداق إلاّ الصبر والاشتغال بمناجاة الله وعبادته ثانياً.

وقال تعالى: (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْعَامِلِينَ) * قَالَُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَبَعْدَ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (الأعراف/ 128-129).

هذه الآية تشير إلى مبادئ وشروط ثلاثة: أحدها في العقيدة وهو (الاستعانة بالله)، والثاني: في الأخلاق وهو (الصبر والثبات) والآخر: في العمل، وهو (التقوى)، وهي ليست شرائط انتصار قوم بني إسرائيل وحدهم على العدو، بل كل شعب أراد الغلبة على أعدائه لابد له من تحقيق هذه البرامج الثلاثة، فالأشخاص غير المؤمنين والجناء وضعفاء الإرادة، والشعوب الفاسقة الغارقة في الفساد، إذا ما انتصرت فإن انتصارها يكون لا محالة مؤقتاً غير باق.

كما أن فرعون لا يملك الأرض حتى يمنحها من يشاء، ويمنع من التمتع بها من يشاء، بل هي يورثها من يشاء، وقد جرت السنة الإلهية أن يخص بحسن العقابة من يتقيه من عباده، فإن استعنتم بالله وصبرتم في ذات الله على ما يهددكم من الشدائد - وهو التقوى - أورثكم الأرض التي ترونها في أيدي آل فرعون.

مكارم الأخلاق: فعن علي (ع) في بيان ما يجب على الأمة أن تستعين بالله به نصرة لإمامها: "أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد".

الدعاء: قال تعالى: (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) (غافر/ 60).

القرآن: فإن آيات الله وكلماته خير ما يستعين به المرء في حياته وقد تضافرت الروايات التي حدثتنا على الاستعانة بكتاب الله.

التوسل بالأنبياء والأئمة (عليهم السلام): وذلك لرفعة مقامهم عند الله تعالى، وأنه أوجب علينا التوسل بهم لاستئصال إغاة السماء، فهم باب الله الذي منه يؤتى، والتوسل بهم ليس كما يتوهم البعض من اعتبارهم سلطة مستقلة وتأثير مستغن عن الله، بل بما أعطاهم الله من السلطة ومن عليهم من التأثير.

الصمت: قال تعالى عن لسان مريم (ع): (إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنِ أَكَلِمَ إِلَّا الْيَاقِينَ) (مريم/ 26). فقد أعان الله مريم لينجسها من القوم الذين أرادوا بها سوءاً وذلك من خلال الصمت وعدم الدخول معهم في الجدل والقييل والقال.

بركات الاستعانة بالله:

عن علي (ع): "وأكثر الاستعانة بالله يكفك ما أهمك ويُعذك على ما نزل بك إن شاء الله".

ولأن من استعان بغيره، فقد استسمن ذا ورم، ونفخ في غير صرم، أفلا يستعان به وهو الغني الكبير؟ أم كيف يطلب من غيره والكل فقير؟! وإنني لأرى أن طلب المحتاج من المحتاج سفه من رأيه وضلة من عقله، فكم قد رأينا من أناس طلبوا العزة من غيره فذلوا، وراموا الثروة من سواه فافتقروا، وحاولوا الارتفاع فأتضعوا، فلا يستعان إلا بالله تعالى وتقدس، ولا عون إلا منه تبارك وتعالى.

ولقد كان رسول الله (ص) يدعو الله: "آمنن علينا بالنشاط، وأعدنا من الفشل والكسل والعجز والعلل والضرر والضرر والملل".

وعنه (ص): "اللهم إنني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل".

وأوضح من هذا ما ورد من آيات في (التوكل) باعتباره يمثل شعبة من شعب الاستعانة بالله عز وجل، قال تعالى: (... وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (هود/ 88).

(وَلَا يَنْتَوِيحُوا فَقُلْ أَسْأَلُ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ

رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (التوبة / 129).

(.. وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلَا يُدْرِكُ الْإِْمُؤْمِنُونَ) (آل عمران / 160).

(.. وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلَا يُدْرِكُ الْإِْمُؤْمِنُونَ) (المجادلة / 10).

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ...) (هود / 123). ►